المحاضرة الخامسة: الاتجاه القومي(ساطع الحصري)

يعتبر ساطع الحصري (1880 ـ 1968)أهم منظري القومية العربية الذين أرسوا دعائم نظريتها حتى اعتبر فيلسوف القومية العربية، فعلى مدى ما يقارب القرن، حمل ساطع الحصري الشاب والكهل والعجوز لواء القومية العربية فكراً وممارسة من مدخل التربية والتعليم والعمل الفكري والتنظيري، فأسس لنظم تعليم وألف المناهج المدرسية والجامعية، ناهيك عن عدد كبير من المؤلفات والكتب التي تناولت القومية العربية من جوانبها المتعددة السياسية والاجتماعية والفكرية.

أولا: ساطع الحصري ونظريته في القومية العربية

ركزت معظم كتابات ساطع الحصري على موضوع القومية العربية فكراً وممارسة، إذ قلما نجد كتاباً من كتبه لم يتناول هذا الموضوع إن لم يكن موضوعه الأساسي، وهكذا دارت جل كتابات ساطع الحصري حول شرح نظريته في «القومية العربية» و«الأمة العربية» والتصدي لمعارضيها من العرب وغيرهم. وقد قام الحصري بدراسات وافية حول الفكر القومي عند مختلف الشعوب، ودرس النظريات القومية لديها، كما درس النظريات المعادية للفكر القومي بغية تفكيكها وهزيمتها نظرياً تمهيداً لإقرار نظريته في الأمة العربية.وكان الحصري من المؤمنين إيماناً قطعياً بوحدة الأمة العربية، حيث كان يقول: «أنا أعتقد أن وحدة التاريخ واللغة ستعمل عملها في العالم العربي حتماً، وستتطور الأمور من جراء ذلك تطوراً ينتهي إلى اتحاد الأقطار العربية عاجلاً أو آجلاً».أعجب الحصري بالمفكر الألماني فيخته القائل بأن اللغة هي أساس القومية، مستمداً الدليل على نظريته من أمثلة تعود لقيام الوحدة الألمانية بعد التجزئة، وقيام الوحدة الإيطالية، والبولونية وغيرها الكثير. كما علل انحلال الإمبراطوريتين العثمانية والنمساوية باختلاف لغات الشعوب التي كانت تابعة لكل منهما. ويؤكد الحصري أن العامل الثاني للقومية يكمن «في وحدة التاريخ لا في وحدة الأصل».

1 ـ العوامل المباشرة التي تتكون منها القومية:بحث الحصري في العوامل المباشرة التي تتكون منها القومية، وقد اختار عاملين عدهما أساسيين هما:

ـ **اللغة المشتركة:**اللغة روح الأمة وحياتها، فالأمة تقوم على أساس موضوعي هو اللغة، ولما كانت الأمة تحدد بلغتها، فهي تشمل جميع الناطقين بهذه اللغة.وينبع اهتمام الحصري باللغة من اهتمامه بالعوامل الناشئة عن الاجتماع البشري، فيعد اللغة محور العوامل النفسية والاجتماعية والمعبر عنها، فالإنسان يمتاز عن الحيوان بالنطق، ويتميز الإنسان من الإنسان باللغة التي هي وليدة الاجتماع البشري، وعامل من عوامله أيضاً، أي أن هناك علاقة جدلية بين اللغة والمجتمع، تؤثر في فكر الفرد وعواطفه معاً وتخلق نوعاً من التوحيد بينه وبين المجتمع.

ـ **التاريخ:**يعرف الحصري التاريخ بأنه شعور الأمة وذاكرتها، وإذا ما نسيت أمة تاريخها، فإنها تخسر شعورها ووعيها لذاتها، وهي لن تستعيد وعيها القومي إلا بالعودة إلى تاريخها.ويميز الحصري بين التاريخ بوصفه وقائع وأحداثاً وبين التاريخ الحي في النفوس والعقول، والنوع الثاني هو الذي تتذكره الأمة وهو الذي يمثل أمجاد الماضي ويخلق الأمل للمستقبل.

هكذا وجد الحصري أن وحدة اللغة ووحدة التاريخ هما أس الأساس في تكوين أمة ما، ويقول في ذلك: «لأن الوحدة في هذين الميدانين هي التي تؤدي إلى وحدة المشاعر والمنازع ووحدة الآلام والآمال ووحدة الثقافة، وبذلك كله تجعل الناس يشعرون بأنهم أمة واحدة متميزة عن الأمم الأخرى»،

2 ـ العوامل غير المباشرة في تكوين القومية:العوامل التي تناولها الحصري بالنقد والتحليل ورأى أنها ثانوية هي:

ـ **المصالح الاقتصادية:**رغم إدراك الحصري لأهمية المصالح الاقتصادية في حياة الأفراد والجماعات، فهو يرى أنها ليست من العناصر المشكلة للقومية، بل إنها قد تسير في اتجاه معاكس للوحدة القومية، فالأحاسيس القومية هو نوع من العواطف يسمو فوق الحسابات النفعية، ويقول عن ذلك: «فلو عمل الناس بمسائل المنفعة دون أن يلتفتوا إلى الأمور العاطفية والمعنوية، لتفككت جميع الروابط الاجتماعية من العائلية إلى القومية، ولانحطت البشرية إلى مرتبة دون مرتبة البهائم».

وهكذا يبدو رفض الحصري القاطع للاقتصاد كعامل مكون للقومية، وبرأيه أن الحياة الاقتصادية تتيسر عادة بعد تكوين الدولة القومية، لذا يجب أن تعد من نتائج تكون الأمة واستقلالها لا من عوامل تكوينها.

ـ **الأصل المشترك**:يرفض الحصري أيضاً نظرية الأصل المشترك (أي الوحدة العرقية للأمة)، لأنه يتناقض مع الحقيقة العلمية والتاريخية، فليس هناك من أمة تستطيع أن تدعي النقاء العرقي. بل كانت فكرة وحدة الأصل تثير القلق لدى الحصري لأنها الأساس الفكري الذي ساعد على قيام الأنظمة الفاشية في أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين.

ـ **الإرادة المشتركة**:هنا يخالف الحصري النظرية الفرنسية التي تقول أن الأمة هي جماعة تريد أن تكون أمة، فالإرادة ليست سبباً، بل هي – حسب الحصري – نتيجة تنبع من القومية.

ـ **الدين**:لا ينكر الحصري تأثير الدين في المشاعر الإنسانية، فالدين أصيل في طبيعة النفس البشرية، ويشغل الجانب الأكبر من حياة الإنسان الروحية، لكن الأديان الرئيسية (وخصوصاً منها السماوية)، هي في حقيقتها أديان عالمية، أي أنها لا تقتصر على شعب بذاته، وبذلك يرى الحصري أن الدين لا يمكن أن يشكل أساساً للقومية، وهذا بدوره ينزع من المستعمرين إمكانية اللعب بسلاح الطائفية.

ثانيا: ساطع الحصري والعلمانية

كرر ساطع الحصري النظريات الغربية عن القومية باعتبار اللغة والتاريخ المشترك المكونين الأساسيين لتكوين الأمم. وكان يعتبر الدين عنصراً ثانوياً مكملاً مفتتاً بذلك الرابطة الإسلامية التي كانت تقوم عليها الدولة العثمانية. ومع أن ساطع الحصري قد نادى في كل دراساته بدولة قومية علمانية إلا أنه كان يؤكد أن علمانيته لا تعني «اللادينية» كما كان يفهمها كثير من رفاقه، وإنما كان يؤكد على أن الدين بعد شخصي في حياة الفرد.

نظر الحصري إلى الإسلام على أنه حركة تجديدية عربية كان لها دورها في صنع تاريخ الأمة العربية، ولكنه يرى أن قراءة التاريخ بأعين معاصرة تؤكد أن دور الدين في العصر الحديث قد غدا

ثانوياً أو هامشياً، ومثله مثل الكثير من دعاة القومية حاول ساطع الحصري أن يعيد الاعتبار إلى المرحلة الجاهلية باعتبارها تمثل المهد الذي نشأت فيه الدعوة الإسلامية.

والحصري من الآباء الروحيين لكثير من الأحزاب القومية العربية ومن هنا نجد أن وزارات المعارف والمجامع العربية كانت تفتح له أبوابها من قطر إلى قطر (سورية، العراق، مصر، لبنان، الجامعة العربية) ولم تكن هذه التسهيلات ترتبط بمقدرة الرجل وحسب، بل ترتبط ارتباطاً وثيقاً بموقفه الأصلي من الدولة العثمانية.

ثالثا:ساطع الحصري ودوره التربوي

يعتقد الحصري أن الوحدة العربية وحدة طبيعية، أما ما ساد من تجزئة فهو زائف ومصطنع، وقد اتخذ من التربية سلاحاً استخدمه لنشر الإيمان القومي والوعي القومي والفكر القومي بين أبناء الأمة، في محاولة لإزالة الفوارق والاختلافات بين الأقطار العربية.وتركز اهتمام الحصري على اللغة العربية، منطلقاً من كونها روح الأمة وحياتها، والتاريخ العربي لأنه ذاكرة الأمة وشعورها، ولم يغفله ذلك عن ضرورة الاهتمام بالعلوم الحديثة من رياضية وطبيعية لتنمية العقل، وإزالة ما علق في العقل العربي لقرون عدة من الإغراق في الكلاميات والخياليات، مشدداً على توسيع آفاق المعرفة والإدراك.وقد نظر الحصري إلى التراث على أنه منطلق للسير قدماً نحو المستقبل في سبيل تحقيق الأهداف القومية، وأنه يجب البناء على العناصر الإيجابية في الماضي للتخطيط نحو المستقبل والسير نحوه، ويرى أن الماضي لا يجوز أن يكون هدفاً يتم التوجه نحوه بغية العودة إليه، بل يجب جعله نقطة استناد في الاندفاع إلى المستقبل.